الهيرمنوطيقا المعاصرة و تكريس النزعة النسبية

لخضر سباعي* أستاذ مساعد أ
كلية العلوم الاجتماعية – جامعة ابن باديس . مستغانم - الجزائر
lakhdarsebai@yahoo.fr

تاريخ الارسال : 2020/ 05/08	تاريخ القبول : 2020/06/09	تاريخ النشر :2020/06/30

ملخص :

يتناول هذا المقال العلاقة بين الهيرمنوطيقا بوصفها فلسفة في التفكير و تأويل النصوص و الثقافات ، و النزعة النسبية التي استشرت في الفكر المعاصر، حيث يتبين أن المقولات الأساسية التي انبنت عليها الهيرمنوطيقا في جذورها الحداثية و تمثلاتها و تطبيقاتها المابعد حداثية، تؤول في منتهاها إلى تكريس النزعة النسبية، التي ترفض ثبات المعنى و استقراره،و تؤكد بالمقابل على زئبقيته و استحالة القبض عليه، العلاقة بين الهيرمنوطيقا والنزعة النسبية، تتضح من خلال الكشف عن النواة الهرمسية للهرمنوطيقا المعاصرة ، كما أكدها مفكرون معاصرون من أمثال ، أمبرتو إيكو.

الكلمات المفتاحية : الهيرمنوطيقا، الهرمسية، النزعة النسبية، أمبرتو إيكو، بول ريكور، موت المؤلف.

مقدمة

شكّلت الهيرمنوطيقا الغربية باتجاهاتها و روافدها المختلفة مظناّ واسعا للنزعة النسبوية في الفلسفة والفكر بشكل عام،و في الحقيقة أن الهيرمنوطيقا بجعلها للفلسفة المعاصرة نسبوية المنزع، لم تقم بشيء آخر سوى استرجاع طبيعتها الأصلية،فالفلسفة بعبارة جيل دولوز"هي فن التأويل التعددي l'art de l'ainterprétation pluraliste"[1] .

[1]-Gilles Deleuze, Nietzsche Et La Philosophie, Presses Universitaires De France, Paris, Septembre,1983,P5.

يميّز بول ريكور في هيرمنوطيقا الأزمنة الحديثة بين نظامين مختلفين تمام الاختلاف:أما الهيرمنوطيقا الأولى فتمثلها فكرة بولتمان[1]عن نزع الطابع الأسطوريDemythologing وهي تتعامل مع الرمز بمودة و حب في محاولة لاسترداد معنى خفي فيه، و أما الثانية فتعمد إلى تدمير الرمز بوصفه تمثيلا لواقع زائف،إنها تنزع الاقنعة و تحطم الأوهام في محاولة عقلية لا هوادة فيها لكشف الأستار وفضح التعمية و الزيفDemustification،هذه هي هيرمنوطيقا الارتياب Hermeneutics Of Suspicion التي يمثلها الارتيابيون الثلاثة العظام:ماركس،نيتشه،فرويد،كان كل واحد من هؤلاء يؤول الواقع السطحي الظاهر كزيف و كذب و يقدّم نسقا من الفكر من شأنه أن يهدم الواقع[2]،و قد بات واضحا من أن الشكل الإرتيابي هو الذي فرض هيمنته على المشهد الثقافي الغربي في اللحظة ما بعد الحداثية،حيث لم يعد التأويل عند مفكري ما بعد الحداثة كما يرصده شوقي الزين:"مجرد وصف أمين للواقع أو تفسير مطابق للنص و إنما هو"إحالة"أو بالتعبير التفكيكي"اختلاف"كتخلف و إرجاء،و هذه الإحالة تؤول حسب جياني غاتيمو،إلى كينونة عدمية،لأن التأويل هو في الواقع، عدم استنفاذ موضوع التأويل، و قراءة لا تحط رحالها عند قراءة بليغة أو معنى يمكن القبض عليه أو واقع يسهل وصفه و التماهي معه"[3].

---

[1] - **رودلف بولتمان** فيلسوف لاهوتي ألماني(1884.1976) من أبرز المفسرين البروتستنتيين للعهد الجديد،كان رائد "نزع الطابع الميتولوجي عن المسيحية، اعتبر الأسطورة تشويها للإيمان، لهذا دعا تفكيكها، من أهم مؤلفاته،"يسوع: الأسطورة و نزع الأسطورة"(أنظر جورج طرابيشي،معجم الفلاسفة، دار الطليعة للطباعة و النشر والتوزيع،بيروت، ط3، 2006، ص 207.

[2] - عادل مصطفى، فهم الفهم، مدخل إلى الهيرمنوطيقا،رؤية للنشر و التوزيع،القاهرة ، ط1، 2007، ص 79.

[3] - محمد شوقي الزين، تأويلات و تفكيكات، ص 21

1- الهيرمنوطيقا بوصفها هرمسية جديدة :

إن النظام/اللانظام التأويلي الذي تتبناه الهيرمنوطيقا في مقاربة الظواهر النصية، يعيد وصل راهن الثقافة و الفكر المعاصرين بالثقافة السحرية الهرمسية،فتصبح الهيرمنوطيقا هي هرمسية جديدة،فقد أكد كثيرون على الطابع الهرمسي للهيرمنوطيقا، حيث أن بإطلاق الهيرمنوطيقا على التأويل بما هو اشتغال على الكلام،في صوره المختلفة، نقلا،أو فهما،أو شرحا،أو ترجمة،تحقق التسمية وفاءها للقاعدة الضرورية في الربط بين المعنيين اللغوي،والاصطلاحي، باعتبار أن ما يقوم به المؤول داخل ما نسميه فلسفة التأويل أو الهيرمنوطيقا،مماثل ومحاك للوظيفة التي يقوم بها هرمس مؤوّلا أو شارحا أو مترجما،أو تاليّا لكلام الآلهة،حول هذا التماثل بين الهيرمنوطيقا،ومرجعها اللغوي"هرمس"،يقول عادل مصطفى"إن الصلة بين خصائص الهيرمنوطيقا وخصائص الإله هرمس هي صواب مؤكّد ويقين لا شك فيه، فالهرمنوطيقا هرمسية قلبا و قالبا،من حيث هي فن الفهم و تأويل النصوص...فاللفظة توحي بمعنى التفسير الذي يضطلع بكشف شيء ما،مستور و سريّ، شيء مضمر باطن في قلب النص يندّ عن الفهم العادي و القراءة المعهودة"[1].

إلى المطابقة ذاتها، بين الهيرمنوطيقا(على الأقل في شكلها الارتيابي)،والهرمسية،يذهب **أمبرتو إيكو**، فيعود بالهيرمنوطيقا إلى منبتها في الحضارة الإغريقية التي كانت"كانت مهووسة بفكرة اللانهائي(كمرادف للنسبي)،وبفعل هذا الهوس شكّلت على هامش مبدأي"الهوية"و"عدم التناقض"فكرة المسخ[2] الدائم مرموزا إليه بهرمس، و لقد كان هرمس كائنا

[1] - عادل مصطفى ، فهم الفهم، ص 26.

[2] - تأخذ لفظة المسخ في الثقافة الإسلامية معنى سلبيا قدحيا، يحيل إلى العقاب الذي يسلطه الله على العصاة، بأن"يمسخ" آدميتهم،و يرفع عنهم نعمه ، فيحطهم إلى أرذل الدركات،و هو المعنى نفسه الذي تستبطنه التهمة التي يوجهها

متقلّبا و غامضا، فقد كان أباً لكل الفنون وربّا لكل اللصوص في الوقت ذاته، و لقد كان شيخا و شابا في ذات الوقت"[1].

إن أسطورة هرمس التي تختزنها الذاكرة اللغوية للفظة الهيرمنوطيقا تعني عند أمبرتو إيكو"نفي مبدأ الهوية ومبدأ عدم التناقض،و كذا لمبدأ الثالث المرفوع،و فيها أيضا تنكفئ السلاسل المنطقية على نفسها لتشكل هرما حلزونيا، ف"مابعد"يسبق ما"قبل"،و الإله لا يعترف بأية حدود فضائية،و يمكنه أن يكون، على هيئات متنوعة،في أماكن متعددة في وقت واحد"[2]،عبر هذا الامتياز الذي أتاحته الأسطورة الإغريقية لهرمس،و تم توريثه لفلاسفة التأويل المعاصرين تحوّل مسرح العالم كله . كما يقول إيكو . إلى ظاهرة لسانية و يحرم اللسان فيها، من أية سلطة إبلاغية"[3]؛ و تصبح النصوص والمعاني ذات طبيعة زئبقية، في مشهد عدمي درامي و جمالي في الآن ذاته.

يُجري الناقد الايطالي **أمبرتو إيكو** عدة إحالات لمقولات الهيرمنوطيقا المعاصرة إلى التراث الهرمسي الإغريقي واللاتيني واليهودي، فيذكر أن هذا التراث ساهم بشكل مفارق في ميلاد عدوه الجديد، متمثلا في العقلانية العلمية[4]والفلسفية الحديثة،و يقول إيكو"ليس من العسير العثور في النقد ما بعد الحداثي على مفاهيم كثيرة تحيل على فكرة الانزياح الدائم للدلالة،فالفكرة التي عبر عنها

الفكر الديني المحافظ للقراءات المعاصرة للنص الديني، فيتهما ب"مسخ"النص وتحويل طبيعته،والحط من شأنه،في مقابل هذا المعنى السلبي،تأخذ اللفظة في الخطاب الهيرمنوطيقي معنى التحوّل،والنسخ ،والصيرورة، كنقيض لفكرة الثبات والإطلاقية.

[1] - امبرتو إيكو،التأويل بين السيميائيات و التفكيكية، تر: سعيد بنكراد ،المركز الثقافي العربي،الدار البيضاء، بيروت، ط2، 2004، ص ص 28،29.

[2] - المرجع نفسه ، ص 29.

[3] - المرجع نفسه ، ص 34.

[4] - يقول إيكو"مارست المعرفة الهرمسية تأثيرها على فرانسيس بيكون، وكوبرنيك و كيبلر ونيوتن،و لقد ولد العلم الكبي الحديث عبر حواره مع المعرفة النوعية الهرمسية": التأويل بين السيميائيات و التفكيكية ، ص 36.

فاليري مثلا القائلة بأن لا وجود لمعنى حقيقي للنص،والتي جعلها بعض منظري القراءة شعارا لهم هي فكرة هرمسية"[1].

بعد تأكيده للتواصل أو بالأحرى التطابق الموجود بين الهرمسية القديمة،والهيرمنيوطيقا يحصي العناصر المشتركة بينهما في ما يلي:**أولا**:اعتبار النص كون مفتوح(open-end)بإمكان المؤول أن يكتشف داخله سلسة من الروابط اللانهائية،**ثانيا**:القول بعجز اللغة عن الإمساك بدلالة وحيدة ومعطاة بشكل سابق،**ثالثا**:-القول بأن اللغة تعكس لا تلاؤم الفكر. إن وجودنا في الكون عاجز عن دلالة متعالية.**رابعا:**إن كل نص يدعي إثبات شيء ما هو كون مجْهض،أي نتاج كائن يشكو من اختلال ذهني.تنتهي هذه التماثلات إلى إحلال قصدية القارئ محل قصدية الكاتب التي تستعصي على الضبط، لحظتها سيصل إلى الحقيقة ،حقيقة أن الكاتب لا يعرف ما يقوله، فاللغة هي التي تتحدث نيابة عنه[2].

الوجهة الصريحة التي أخذتها الهيرمنوطيقا المعاصرة مقتفية أثر الهرمسية القديمة،هي تحرير الدلالة من الدال،ونقض وهم التطابق الذي كرّسته فلسفة اللغة الكلاسيكية،وجهتها هي تحرير القارئ من سلطة النص وصاحبه،بل هي إنقاذ النص من القراءات الحدّية التي تدعي استنفاذ دلالته،إنقاذ النص يعني في المنظور الهرمنو-هرمسي"نقله من وضع الحاضن لدلالة ما والعودة إلى طابعه اللامتناهي،على القارئ أن يتخيل أن كل سطر يخفي دلالة خفية"[3].

---

[1]- المرجع نفسه ، ص 37.

[2]- المرجع نفسه ص 42.

[3]- المرجع السابق، ص 43.

2- الهيرمنوطيقا بوصفها أنطولوجيا :

الهيرمنوطيقا بالمعنى العدمي الذي انتهت إليه مع فلاسفة ما بعد الحداثة صارت تقدم نفسها كبراديغم ثقافي كاسح ينأى بنفسه عن المقولات الإيبستيمية للفكر الوضعي والميتافيزيقي على حد سواء،حيث لا سلطة للمنطق،و لا لمبادئ العقل، أو أية مقولات منهجية وميتافيزيقية أخرى،صورة هذا الانزياح بالفعل التأويلي عن وظيفته المنطقية المرجعية يوضحها شوقي الزين في ذلك الفصل الحاد الذي أقامه **ريتشارد رورتي** بين الايبستيمولوجيا والهيرمنوطيقا، نمط الوجود يعني استحالة أن يتأسس الكائن على قاعدة ثابتة أو أصل خالص وإنما ينحو قُدما صوب التعدد والانفصال أو الحياة وتصبح هويته في"عدميته"بالذات أي استحالة كونه"هو"دوما دون تبدّل أو تحوّل أو تقلّب،أو استحالة التماهي مع ذاته أو صورته أو أن يظلّ بماهيته الجوهرانية الثابتة"[1].و بهذه الإزاحة لم يعد التأويل يضطلع بوظيفة منطقية معرفية، و إنما صار تجربة وجودية جمالية.

لم يخرج **جياني غاتيمو** عن الخط الذي رسمه **غادامير** لتحرير الهيرمنوطيقا من الأوهام المنطقية والمنهاجوية، فقد أضحت الهيرمنوطيقا عند **غاتيمو** تجربة ذوقية لها إبداعيتها الخاصة التي تزاحم بها الإبداعية الأصلية القائمة في النصوص، يمكن القول مع غاتيمو"أن الثقافة الغربية المعاصرة بانفتاحها على العدمية...انتقلت من "نمط المعرفة"الذي ساد مع انفجار التقنيات العلمية و القراءات الوضعية التي تبحث عن قاعدة موضوعية أو مبدأ وضعي صارم أو قانون كلي شامل،أو مطابقة تامة بين

[1] - محمد شوقي الزين، تأويلات و تفكيكات،منشورات ضفاف، بيروت، منشورات الاختلاف الجزائر، ط1، 2015، ص 22.

الشيء ومدلوله إلى"نمط الوجود"الذي ينفتح على الخيال والذوق والمجاز والتأويل"[1].

من خلال هذا المنزع حطّمت الهيرمنوطيقا الحديثة أسطورة "الوضعية" التي بالغت في زعمها بوجود حقيقة موضوعية علمية كاملة أو شبه كاملة،لأنها(الهيرمنوطيقا) تثبت بما لا يخالطه جدل،أن العالِم ينطلق دوما من وجهة نظر بالمفهوم الواسع،لا بمعنى أنه ابن ثقافته،و نظرته إلى الوجود واقتناعاته الفلسفية المعلنة والمضمرة فحسب،بل هو كذلك بمعنى أنه في بحثه لا يستطيع الخروج عن المقدمات الايبستيمولوجية التي يمليها عليه المنهج الذي قرر إتباعه"[2].ضمن هذه الوثب على النزعة المنهاجوية التاريخاوية يتنزل تأكيد هانز جورج **غادامير** على الدور الإيجابي للأحكام المسبقة في تجربة الفهم،فالحكم المسبق عند غادامير"لا يعني ضرورة أنه حكم خطأ،و لكن جزءا من الفكرة ربما يكون إما ذا قيمة إيجابية أو سلبية...وبالتالي فإن الإقرار بأن كل فهم يتضمن حتما حكما مسبقا هو إقرار يمنح المشكلة التأويلية قوتها الحقيقية"[3].

3- المقولات الأساسية للهيرمنوطيقا:

3-1 - مقولة انتفاء البراءة في القراءة: يقصد بالبراءة هنا النزاهة و الخلو من الغرضية،والاستعمالية في تأويل النصوص وتفسيرها،و عكس البراءة،هو الوفاء للنص وعدم الخروج عن المدلولات المعجمية لحروفه،مؤدّى مقولة انتفاء البراءة هو أن القراءات والتفاسير والتأويلات دون استثناء ليست

---

[1]- المرجع نفسه، ص 23

[2]- - أسعد قطان ، الهيرمنوطيقا الحديثة و فهم النص ، ضمن : التأويل و الهيرمنوطيقا، دراسات في آليات القراءة و التفسير(مجموعة من المؤلفين)،مركز الحضارة لتنمية الفكر الاسلامي، بيروت ،ط1، 2011، ص 59.

[3]- هانز جورج غادمير، الحقيقة و المنهج(الخطوط الأساسية لتأويلية فلسفية)،تر:حسن ناظم، علي حاكم صالح،دار أويا،طرابلس(ليبيا)،ط1،2007،ص 374.

مقطوعة الصلة عن الإيديولوجيا، بما هي مجموعة من الموجهات الخفية والمضمرة التي تحدد للقارئ، في قسر و إكراه غير مشعور به،الدلالات التي يجب أن يعطيها للنص،بمقتضى هذه المقولة تبطل أية مزايدة لقراءة ما على باقي القراءات، فهي كلها سواء في تأبط أغراض و مصالح، تتفاوت في"تقنيعها"،إن تأكيد ارتهان القراءة للإيديولوجيا لا يعتبر قدحا، بقدر ما يشكّل التنبيه إلى عنصر محرّك للسيرورة التأويلية، هذه المقولة لا تدعو إلى تخليص الفعل التأويلي من الإيديولوجيا، التي لم يعد ينظر لها على أنها لوثة،بل إلى تمكين المؤول من الوعي والانتباه إلى حضورها في صناعة المعنى،وجدت فكرة انتفاء البراءة،أو إساءة القراءة، عند كثير من الفلاسفة و النقاد، فهذا لويس ألتوسير يعترف في مفتتح قراءته لـ"رأس مال" كارل ماركس بأنه :"لا توجد قراءة بريئة،و في أي قراءة نحن مذنبون nous sommes coupables"[1]،و لعلّ الذنب الذي تضطر كل قراءة لارتكابه هو الإساءة الجيدة للنص!.إن هذا الذنب، هو فعل لاواعي ولا إرادي في الوقت ذاته، تمليه الحاجات السيكولوجية و السوسيولوجية، إن"إساءة الفهم هذه ليست مجرد قراءة مغلوطة، بل هي تكييف شخصي و متحيّز،و يمكن مقارنته بما يسميه روبير إيسكاربيت[2]"خيانة أخلاقية"[3]،إننا هنا أما توصيف يضيف الأخلاقية إلى الخيانة دونما شعور بالتناقض !!.

---

[1] -Louis Althusser, Étienne Balibar, Lire Le Capital 1, François Maspero. Paris.1973.P10.

[2]- Robert Escarpit (2000.1918)،من أهم الباحثين الفرنسيين الذي دشنوا الدرس السوسيولوجي للأدب،مؤكدا على أهمية الشرط السوسيولوجي في فهم و تفسير النتاجات الأدبية،عرف في فرنسا بمقالاته الساخرة التي كان ينشرها في صحيفة Le Monde، من أهم كتبه"سوسيولوجيا الأدب"،أنظرهذا الكتاب، تر: آمال انطوان عرموني،عويدات للنشر والطباعة، لبنان،ط3، 1999.

[3]- بيير زيما،التفكيكية، دراسة نقدية،تع:أسامة الحاج،المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع، بيروت،ط1، 1996، ص 150.

فكرة إساءة القراءةmisreading،تعود حسب **هارولد بلوم**[1] إلى القبلانية اليهودية[2]،وإلى فكر فيكو(1744.1668)،يقول بلوم:"إن القبلانية تسيء قراءة كل لغة ليست قبلانية،وأنا أؤكد أن كل شعر قوي متأخر يسيء قراءة كل كلام ليس شعر...أما فيكو فيعزو هو الآخر اتجاه القبلانية و المعرفة الروحية إلى إساءة الفهم أو التجاهل النصّي...لقد كان فيكو أو من خطرت له...فكرة أن كل شاعر يصل متأخرا، و إن كل قصيدة هي مثل على ما سماه فرويد"الدلالة ذات المفعول الرجعي".[3]إساءة القراءة كما يشرحها عبد العزيز حمودة عند بول دي مان"لا تعني أنها قراءة غير صحيحة،وإنما تعنى القراءة التي تفسح الطريق لإساءة قراءة أخرى،و هكذا، كل إساءات القراءة...هي قراءات صحيحة إلى حين "[4]

انتفاء البراءة في القراءة أكدت عليه البنيوية[5]، كما أكدت عليه التفكيكية بعدها،فصارت هذه المقولة علامة على أزمة يقين فائقة في الفكر الغربي المعاصر،أدخلته في عصر من التيه و العمى والعبثية التأويلية،حيث صار القارئ يضرب النصوص خبط عشواء،يحفل بما تؤتيه رمية النرد غير آبه بما بسلطة معاجم وقواميسها اللغة؛أو الثقافة وتقاليدها الاجتماعية والأدبية،انتفاء البراءة بهذا المعني يؤول تلقائيا إلى القتل الايبستيمولوجي لمؤلفو النصوص،استخلافهم بالقراء،و تمليكهم لزمام الأمر في تخيّل المعنى و

---

[1]- harold bloom (1930-2019) ناقد أمريكي توفي يوم 16أكتوبر 2019،كان عضو الجمعية الفلسفية الأمريكية، و الأكاديمية الأمريكية للفنون و العلوم، يعتبر"أحد ورثة التراث النيتشوي الذي يعزّز على طريقته المشروع اللعوب للتأويل الساخر من الذات" أنظر: بيير زيما،التفكيكية، ص 149.

[2]- القبلانية أو القبالة cabalisme هي نزعة سحرية تنجيمية غنوصية(عرفانية) باطنية يهودية تقول باحتواء التوراة على أسرار لا ينفذ إليها إلا فئة خاصة من اليهود، و تحاط تعاليم هذه النزعة بسرية كبيرة.

[3]- بيير زيما،التفكيكية، ص ص 151،150.

[4]- عبد العزيز حمودة، المرايا المحدبة، من البنيوية إلى التفكيكية، سلسة عالم المعرفة، الكويت، العدد232، أفريل 1998، ص 344.

[5]- عبد السلام المسدي،قضية البنيوية،المطبعة العربية، بن عروس، تونس،ط1، 1991، ص 77.

التعبير عنه بكل حرية!!. تؤكد الهيرمنوطيقا انفتاح النص على معطيات غير منتهية،ولكنها في الوقت نفسه لا تبحث عن حقيقة ما يحتفظ بها النص،فهي لا تعترف بتلك البطون والحقائق التي يشتمل عليها النص سلفا؛وذلك لكونها لا ترى سوى نص لغوي قابل للبناء والتشكيل من جديد بحسب التباين الثقافي والأفق المعرفي،كأن الأمر أشبه باستعمال النص حسب أهداف المؤول و توجهاته،أو على أقل تقدير أن الفكر المسبق لدى المؤول يبحث عن وجوده النص[1].

2-3- مقولة موت المؤلف:تتعامل الهيرمنوطيقا المعاصرة مع النص باعتباره يتيما،مات مؤلفه،الأمر الذي يتيح للقارئ سلطة تطويعه لمقولاته،و هواجسه،و انتظارا ته،و تخيلاته،و قد برزت مقولة موت المؤلف عند الناقد الفرنسي رولان بارت،كتعبير عن ضرورة فسح المجال أمام القارئ لممارسة سلطته الإبداعية في إنتاج وتوليد المعاني من النصوص،يقول بول ريكور:"أحيانا يطيب لي أن أقول إن قراءة كتاب ما هي النظر إلى مؤلفه كأنه قد مات،وكأن الكتاب عمل بعدي،وبالفعل تصبح العلاقة مع الكتاب تامة وثابتة بشكل ما،عندما يموت الكاتب،آنئذ لا يمكن لهذا الأخير أن يجيب،و ما يبقى هو قراءة عمله فقط"[2]،تكميم فاه المؤلف،و تجاهل نواياه و مقاصده . كما يرى أمبرتو إيكو."لا موقع له ضمن النقد التفكيكي...لهذا من حق القارئ العنيد أن يجد في النص ما يصبو إليه"[3].لأن النص يحتوي على إمكانات نظرية غير محدودة،إطلاق العنان للقارئ لكي يمارس لعبه الحر في المساحات

---

[1] - معتصم السيد أحمد، الهرمنيوطيقا في الواقع الاسلامي بين حقائق النص و نسبية المعرفة،دار الهادي للطباعة و النشر،بيروت ، ط1، 2009 ص 92.

[2] - بول ريكور، من النص إلى الفعل،تر:محمد برادة، حسان بورقية،عين للدراسات و البحوث الإنسانية والاجتماعية،القاهرة،ط1 ،2001،ص106.

[3] - أومبرتو إيكو،التأويل بين السيميائيات و التفكيكية، ص 75.

النصية لا يتم إلى عبر مدخل واحد، هو الاستخفاف بأبوة المؤلف،و قطع صلة النصوص بمؤلفيها،يقول رولان بارت"موت الكاتب هو الثمن الذي تتطلبه ولادة القارئ"[1].

3-3- مقولة البياضات والفراغات:يقصد بالبياضات والفراغات،مناطق الظل التي يُفترض وجودها داخل كل نص، في شكل"مسكوتات عنها"تتطلب الاستنطاق و الاستبطان من طرف القارئ،افتراض وجود فراغات و بياضات في النص عبّر عنه ميشال فوكو بقوله"أن كلّ خطاب ظاهر،ينطلق سرا وخفية من شيئ تم قوله،وهذا"الماسبق"قوله،ليس مجرد جملة تم التلفظ بها،أو مجرد نص سبقت كتابته،بل هو شيء لم يقل أبدا،إنه خطاب بلا نص،و صوت هامس همس النسمة،و كتابة ليست سوى باطن نفسها،و على هذا النحو،يُفترض أن كل ما يعبر عنه الخطاب،تم التلفظ به في هذا الصمت شبه المطلق،السابق عليه،والذي يحاكيه بإصرار، لكنه في الوقت نفسه يخفيه و يخرسه، فالخطاب الظاهر ليس في نهاية المطاف سوى الحضور المانع لما يقوله؟و هذا"المالايقال"هو باطن يلغم،و من الداخل كل ما يقال"[2].

عبر افتراض هذا الافتراض تستوجد الهيرمنوطيقا للقارئ مسوغات ملأ هذه الفراغات بإفراغ تخييلاته داخلها، و إشباع نهمه في ممارسة السلطة على النصوص،و التحرر من القصدية الوهمية التي رسخها النقد الكلاسيكي، القول بوجود فراغات هو الإذن بتمطيط دلالات النص بلا ضابط آخر سوى ظنون القارئ و احتمالاته.

[1]- رولان بارت، هسهسة اللغة،تر: منذر عياشي،مركز الإنماء الحضاري، ط1، 1999، ص 83.

[2]- ميشال فوكو، حفريات المعرفة،تر: سالم يفوت، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، ط2، 1987،ص25.

3-4- مقولة سيلان المعنى:ليس المعنى في مدعيّات الفكر الهيرمنوطيقي معطى قابلا للحصر والتملّك،بل هو كائن هلامي مائي ذو طبيعة زئبقية،إنه مجموعة لا متناهية من الاحتمالات، الأمر الذي يجعل النص محلّ صراع وتجاذب تأويلي، تتساوى فيه جميع الإمكانات التأويلية، عندئذ لا يجوز أن تدعي قراءة ما استنفاذها للنص،و مطابقتها لمعناه، فجميع التأويلات تعتبر نسبية، بحكم الطبيعة السائلة و المتشظية للوسائط اللغوية،إن القراءة وفقا لهذا المنظور تتحول إلى من آلية للشرح و الاستنباط، إلى ممارسة تأليفية و إبداعية،إنها الكتابة المضاعفة التي تجترح نصا جديدا على النص الأصلي.

فالمعنى عند جاك ديريدا في حالة إرجاء و تأجيل أبدي،من المحال تملّكه،و كل تأويل هو اختلاف يتم فيه تأكيد الإرجاء،وهكذا تتوالى سيرورة الاختلافات والإرجاءات، التي يستوجد لها ديريدا تسمية لافته هيDifférance،التي تختلف عنDifférenceليس فقط في مبناها،بل في معناها أيضا،حيث يأخذ الاختلاف بالمبنى الأول معنى الكثرة بلا تحديد و بلا انتهاء،أم بالمبنى الثاني فتفيد إمكان حصر هذه الكثرة ضمن فروق محددة، فالاختلاف الثاني فيه حسم،والاختلاف الأول فيه إرجاء،وهذا الإرجاء هو عند جاك ديريدا"ملازم لكل اختلاف يزعم تحديد هوية كل من الدال و المدلول...إن الاختلافات إنما ينتجها الإرجاء"[1].

لمّا يكون المعنى بهذه الدرجة من السيولة و التدفق الأبدي، فإن التأويل النهائي في منظور بول ريكور يظهر"يظهر كالقرار الممكن استئنافه"،و هو هنا يقيم مماثلة بين الأحكام القانونية،والتأويلات في حقل النقد الأدبي والعلوم الاجتماعية،فكلاهما له قابلية الاعتراض، الفرق الوحيد بينهما"هو أن في المحكمة يمكن الوصول إلى اللحظة التي تستنفذ فيها إجراءات

[1] - بيير زيما،التفكيكية، ، ص ص 75،76.

الاستئناف...أما في النقد الأدبي والعلوم الاجتماعية ، فلا مجال لكلمة أخيرة مماثلة، و إذا حدث ذلك، فإننا نسميه عنفا"[1]، إنهاء السيرورة التأويلية و الركون إلى معنى نهائي . بالتوصيف الذي يقدمه إيكو لهيرمنوطيقا التفكيك . "هو فعل يُقبل عليه الأغبياء، أي الخاسرون، هم الذين ينهون السيرورة قائلين:لقد فهمنا،أما القارئ الحقيقي هو الذي يفهم أن سر النص يكمن في عدمه"[2].

القراءة كما تدعو إليها الهيرمنوطيقا المعاصرة،يعرفها رولان بارت بأنها"نشاط ثوري محض،و ما كان ذلك كذلك إلا لأنه رفض توقيف المعنى،إنما هو رفض للاهوت ولأقانيمه،و رفض للعقل،و العلم و القانون"[3]، إنها تسييل للمعنىliquidation du sens[4]،و جعلها ملكا مشاعا بين جميع القراء، يشكّلونه وفقا لأمزجتهم و هواجسهم المتحوّلة، لقد أكدت الهرمنوطيقا على دور القارئ في عملية إنتاج المعنى،فلم يعد التأويل في حسبانها مجرّد سلّ معنى قائم بشكل وضعي في النص،ولا إعادة تركيب الحالات النفسية التي اعتمرت نفس المرسل لدى إنشائه النص،و إنما هو فعالية يمارسها القارئ متحرّرا من أي سلطة أو تقاليد،حتى أضحى بعضهم يعتبر أن كل قراءة نص إنما هي، بمعنى ما،إعادة كتابته من جديد[5].

---

[1]- بول ريكور، من النص إلى الفعل،تر:محمد برادة، حسان بورقية،عين للدراسات و البحوث الإنسانية والاجتماعية،القاهرة،ط1 ،2001،ص158.

[2]- أومبرتو إيكو،التأويل بين السيميائيات والتفكيكية، ص 43.

[3]- رولان بارت، همسهسة اللغة، ص 82.

[4]- liquidation من المفارقة أن هذه اللفظة في اللغة الفرنسية تعني "التحويل إلى سائل"، كما تعني"التصفية"(الاعدام) و الإزالة و الإبعاد (كقولنا تصفية الديون)،بالمعنيين معا تأخذ اللفظة وظيفتها هنا للدلالة على التسييل و الإعدام الذي تقوم به الهيرمنوطيقا بالنسبة للمعنى المفترض وجوده في النص، حيثت تقوم ببعثرته و تشتيته، ليكون المجال مفتوحا أمام ممارسة تأويلية تخييلية حرة، كل الحرية، بعد أن تم لها إعدام و تصفية كل الموجّهات المعجمية و الثقافية.

[5]- - أسعد قطان ، الهيرمنوطيقا الحديثة و فهم النص ،ص 60.

خلاصة القول عن هذه المقولات هو أن الفكر الهيرمنوطيقي الحداثي و ما بعد الحداثي أرسى النسبية بوصفها مقولة فلسفية و منهجية عامة ،تهاوى معها وهم المطابقة في صورتية، الميتافيزيقة اللاهوتية، و الوضعية العلموية،إن الحدس الهيرمنوطيقي المنبجس في نصوص فلاسفة التأويل الارتيابي،الذي اختطه نيتشه و ماركس و فرويد،واستلهمه فلاسفة ما بعد الحداثة،جاء ليثبت المنظورية و التاريخية المطلقة لفعل الفهم،فغدا المبدأ المطلق و الثابت الوحيد في هذا الفكر الهرمنوهرمسي هو النسبية، عندئذ لا تصبح مهام هذا الفكر في تجلياته وامتداداته في الحقول المعرفية و الثقافية المختلفة، التأكيد على هذا المبدأ فقط، بل الدعوة إلى حمايته وتمكينه وتوطينه داخل الممارسة الاجتماعية والثقافية الفعلية،لقد أرست الهيرمنوطيقا"نسبية المناهج التفسيرية بخاصة،و تاريخية المقاربة التفسيرية بعامة، فبعد يوتوبيا الموضوعية التامة التي غذّاها انفلاش الوعي التاريخي في القرن التاسع عشر،لقد فنّدت هذه الهيرمنوطيقا وهم الموضوعية المطلقة برصدها مقومات **التاريخية** و المحدودية في كل فهم إنساني"[1]، و في ذات الوقت أكدت على"الطابع اللانهائي و العدمي للتأويل بحيث كل جواب عن سؤال هو ضمنيا سؤال مفتوح لا ينغلق،وينمّ هذا الطابع اللانهائي عن نمط في الأشكلة يسميها قاتيمو أنطولوجيا الراهن،وهي إجابات محايثة تتحول بدورها إلى أسئلة ينتفي معها الجواب الحاسم والقاطع"[2].

داخل هذا الفكر الهرمنوهرمسي تصبح المعرفة التي يمكن توليدها من النص الديني خاضعة للأفق التأويلي للمؤول نسبية؛طالما أن الأفق المعرفي غير محصور تبعا للتجارب الحياتية التاريخية اللانهائية[3]،كما يصبح

---

[1] - - أسعد قطان ، الهيرمنوطيقا الحديثة و فهم النص ، ، ص 63.

[2] - محمد شوقي الزين، تأويلات و تفكيكات، ص 21

[3] - معتصم السيد أحمد ، الهرمنيوطيقا في الواقع الاسلامي بين حقائق النص و نسبية المعرفة، ص 110.

أي تفسير مهما سما قدره،موسوم بمحدودية الإنسان،أي بصفته كائنا يصنعه التاريخ،ويطبعه الزمن،وتمهره الثقافة في مفهومها العام بختمها[1].

4- نقد أمبرتو إيكو للتطرف النسبوي الهيرمنوهرمسي:

لم تلق الهيرمنوطيقا النسبوية القبول من مفكرين غربيين كُثر،من بينهم أمبرتو إيكو،الذي لاحظ أن"حقوق المؤولين فاقت في السنين الأخيرة كل الحقوق"[2]،فأعلن رفضه للانفتاح اللامحدود لسيرورة التأويل،و رأى أنه يجب أن يكون"هناك في موضع ما،مقاييس تسمح بإيقاف التأويل،و إن لم يكن الأمر كذلك،فإننا سنقع في مفارقة من طبيعة لسانية،كتلك التي صاغها ماسيدو فيرنانيدز:"هناك أشياء كثيرة ناقصة في هذا العالم،وإذا أضيف إلى ذلك نقصان شيء جديد، فلن يكون لهذا الشيء أي موضع"[3]، كما يقول:"ليس صحيحا أن تكون كل القراءات صحيحة،فبعضها يكون بالتأكيد على خطأ،إن كشف جانب من جوانب عمل مؤلف يعني في أغلب الأحيان تجاهلا لجوانب أخرى أو تركا لها في الظل،إن بعض التأويلات يقبض بعمق أكثر من غيره على بنية النص"[4]،إن هذا التحفظ الذي يبديه إيكو على مبدأ لا نهائية التأويل يعتبر تراجعا عن مفهوم"النص المفتوح"الذي طرحه للتداول،إن النص المفتوح رغم كونه يستدعي قراءات غير محدودة،فإنه لا يتيح الإمكان لكل القراءات[5]، بل ثمة حدود ينبغي أن يتوقف عندها هذا الانفتاح التأويلي.

---

[1] - - أسعد قطان ، الهيرمنوطيقا الحديثة و فهم النص ، ص 64.

[2] - أومبرتو إيكو،التأويل بين السيميائيات والتفكيكية، ص 21.

[3] - المرجع نفسه، ص 43.

[4] - Umberto Eco ,les limites de l interpretation,tr myriem bouztter, edition grasset, paris,1992, p39.

[5] - Umberto Eco ,les limites de l interpretation,tr myriem bouztter, edition grasset, paris,1992, p38.

إن هذا الموقف النقدي الذي يقفه إيكو يرفض الاستخفاف والتجاهل الذي تتعامل به الهيرمنوطيقا الهرمسية مع المعطى اللغوي للنص،إن الكلمات التي يأتي بها المؤلف تشكل في المنظور النقدي لإيكو"ترسانة ثقيلة من المعطيات المادية التي لا يمكن للقارئ أن يتجاهلها"[1]،رغم احتفائه بسيميائيات تشارلز سندرس بيرس[2]فإن إيكو يرفض المتاهة التأويلية التي يؤدي إليها الفهم الساذج لمقولة السيميوزيس[3]،ويرى أن هذه المقولة"يجب أن لا تقودنا إلى القول بغياب أي قاعدة أو ضابط،فالقول بأن التأويل(باعتباره ممارسة سيميوزيزسية)قد يكون لامتناهيا،لا يعني غياب أي موضوع للتأويل،كما لا يمكن القول بأن هذا التأويل تائه بلا موضوع ولا يهتم سوى بنفسه،فالقول بلانهائية التأويل،لا يعنى أن كل تأويل هو بالضرورة تأويل جيد"[4].

يرى عبد الكريم شرفي أن مشروع إيكو الهيرمنوطيقي،الذي يقوم على تأكيد إنفتاح العمل الأدبي ولا نهائية إمكاناته التأويلية، من جهة،و الحرص على وضع جملة من المعايير و القواعد و الحدود التي تحكم عملية التأويل، من جهة أخرى،قد جاء كردّ فعل على مقولات الفكر التفكيكي،والفكر البراغماتي المتأثر بالتفكيكية،والتي أصبحت تميل إلى منح المؤول الحرية الكاملة في تأويل النص،بل و أكثر من ذلك ترى أن كل تأويل هو انعكاس

---

[1] - أومبرتو إيكو،التأويل بين السيميائيات و التفكيكية، ص 21.

[2] - تشارلز سندرس بيرس Charles Sanders Peirce(1839-1914)، فيلسوف و منطقي أمريكي،أحد أقطاب الفلسفة البراغماتية،أول محاولة فلسفية هامة له هي مقاله "كيف نوضح أفكارنا"،كما يعتبر بيرس مؤسس الاتجاه البراغماتي في السيميوطيقا.

[3] - بيرس هو أول من أدخل مفهوم السيميوزيس إلى ميدان السيميائيات،وهو في نظره سيرورة يشتغل من خلالها شيء ما كعلامة...وانطلاقا من هذا المفهوم سيتم التعامل مع التجربة التأويلية باعتبار لانهائيتها في المطلق الكوني،و باعتبار محدوديتها ضمن السياق الخطابي الخاص"أنظر:سعيد بن كراد،هوامش ترجمته لـ"التأويل بين السيميائيات والتفكيكية،تأليف:أمبرتو إيكو،المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء،ط2، 2004،هامش 1،ص 138.

[4] - أومبرتو إيكو،التأويل بين السيميائيات و التفكيكية، ص 21.

الأهداف المؤول ومقاصده وتوجهاته الخاصة[1]. لقد أضحى التأويل ذو وظيفة استعمالية محضة،تطوّع النص،تقليصا أو تمديدا لما يبتغيه القارئ من غايات ومنافع،و هكذا يظهر أن المسعى الذي ينخرط فيه إيكو يستهدف استعادة الدور المنطقي للهيرمنوطيقا بعد أن أقصته التفكيكية لصالح نزعة عدمية عبثية.

لم يحذّر من عدمية الهيرمنوطيقا التفكيكية نقاد من خارجها فقط، بل أن هناك نقاد مرّوا بالطور التفكيكي،لم يتوانوا في الاعتراف بتهوّر هذه الفلسفة التأويلية،من هؤلاء، نذكر جيوفري هارتمان[2]،الذي كان مدركا لعدمية التفكيك،الأمر الذي جعله"يرفض الكثير من مبادئه،ويحذر من خطورته في"مانفستو"مدرسة ييل التي ينتمي إليها،ويعلن صراحة أنه يخشى التفكيك بقدر إعجابه به،وأنّه تفكيكي بالكاد،و لهذا لا يتردد في الكتابة ضد التفكيك في أكثر من مناسبة"[3]،وضمن هذا التحذير من مغبة الاستمرار في الخط العدمي للتفكيكية،تأتي إشادة هارتمان بالنقد الكلاسيكي،الذي من مزاياه أنه يحيي فينا الشعور بالنظامhieranchies،و يرى . هارتمان . أن المجهود الضخم الذي يبذله ذلك النقد لفرض النظام و الطاعة،حتى و لو أدى ذلك الجهد...إلى الكبت أو إلى استعادة قلقة بدلا من السعادة المستقرة،فإنه يبقى جهدا بطوليّا؛ إنه يدرك أن الكبت الذي يجيء مع النظام

---

[1] - عبد الكريم شرفي،من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة، الدار العربية للعلوم، بيروت،ناشرون، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2007، ص ص 56، 57.

[2] - Geoffrey Hartman(1929-2016). كاتب و ناقد أدبي ألماني،أستاذ بجامعة ييل، وعضو بالأكاديمية الأمريكية للعلوم و الفنون.

[3] - عبد العزيز حمودة، المرايا المحدبة، من البنيوية إلى التفكيكية، سلسة عالم المعرفة، الكويت، العدد232، أفريل 1998، ص 351.

أفضل من فوضى الأنظمة في فكر التفكيك،فالمشكلة في نظر عبد العزيز حمودة، فلسفية أكثر منها لغوية[1].

-قائمة المصادر والمراجع:

أولا : باللغة العربية:

1. أسعد قطان ، الهيرمنوطيقا الحديثة و فهم النص ، ضمن : التأويل والهيرمنوطيقا، دراسات في آليات القراءة و التفسير(مجموعة من المؤلفين)،مركز الحضارة لتنمية الفكر الاسلامي، بيروت ،ط1، 2011.

2. أومبرتو إيكو،التأويل بين السيميائيات و التفكيكية،تر:سعيد بن كراد، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء،ط2، 2004.

3. بول ريكور، من النص إلى الفعل،تر:محمد برادة، حسان بورقية،عين للدراسات و البحوث الإنسانية والاجتماعية،القاهرة،ط1 ،2001.

4. بير زيما،التفكيكية، دراسة نقدية،تع:أسامة الحاج،المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع، بيروت،ط1، 1996.

5. جورج طرابيشي،معجم الفلاسفة، دار الطليعة للطباعة و النشر والتوزيع،بيروت، ط3، 2006، ص 207.

6. رولان بارت، هسهسة اللغة،تر: منذر عياشي، مركز الإنماء الحضاري، ط1، 1999.

7. عادل مصطفى ، فهم الفهم، مدخل إلى الهيرمنوطيقا، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة ، ط1، 2007.

8. عبد السلام المسدي،قضية البنيوية،المطبعة العربية، بن عروس، تونس،ط1، 1991، ص 77.

[1]- المرجع نفسه، ص 351.

9. عبد العزيز حمودة، المرايا المحدبة، من البنيوية إلى التفكيكية، سلسة عالم المعرفة، الكويت، العدد232، أفريل 1998.
10.عبد الكريم شرفي،من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة، الدار العربية للعلوم، بيروت،ناشرون، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2007.
11.محمد شوقي الزين، تأويلات وتفكيكات، منشورات ضفاف، بيروت، منشورات الاختلاف الجزائر، ط1، 2015.
12.معتصم السيد أحمد، الهرمنيوطيقا في الواقع الاسلامي بين حقائق النص و نسبية المعرفة، دار الهادي للطباعة و النشر،بيروت ، ط1، 2009.
13.ميشال فوكو، حفريات المعرفة،تر: سالم يفوت، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، ط2، 1987.
14.هانز جورج غادمير، الحقيقة والمنهج(الخطوط الأساسية لتأويلية فلسفية)،تر:حسن ناظم، علي حاكم صالح،دار أويا،طرابلس(ليبيا)،ط1، 2007..

ثانيا : بالغة الفرنسية:

1. Gilles Deleuze, Nietzsche Et La Philosophie, Presses Universitaires De France, Paris, Septembre,1983.
2. Louis Althusser, Étienne Balibar, Lire Le Capital 1, François Maspero. Paris.1973.
3. Umberto Eco ,les limites de l interpretation,tr myriem bouztter, edition grasset, paris,1992.